

الحلقة الثانية والأربعون

مواضيع عملية

برنامج أنوار كاشفة

أهلاً ومرحباً بك صديقي المستمع في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. ماذا حدث للإنسان في عصرنا؟ ولماذا نجد العنف يملأ عالمنا هذه الأيام؟ والجرائم تزداد في بعض مجتمعاتنا العربية؟ تحت عنوان تصاعد معدلات الجريمة في تونس جاء التقرير التالي:

تصاعدت في الفترة الأخيرة بشكل لافت معدلات الجرائم، التي تتميز بالشكل الاستعراضي أو المسرحي للجريمة، وبجراحة غريبة لمنفذيها، وبدرجة غير معهودة من العنف. والقاسم المشترك بين كل هذه العمليات أنها تتم في وضوح النهار، وعلى مرأى ومسمع من المارة. ورغم عدم توفر إحصاءات رسمية حول المدى الحقيقي لانتشار هذه الظاهرة، فإن مؤشرات عدة تؤكد ارتفاع نسبتها بشكل مقلق.

وقال الدكتور مهدي مبروك أستاذ علم الاجتماع بالجامعة التونسية: أن هناك عدة مؤشرات أخرى تشير إلى أن الجريمة في تصاعد من ناحية الكم والوحشية أيضاً. ومن بين هذه المؤشرات - بحسب مبروك - الملاحظات العفوية لسلوكيات الناس في الشارع، وما تكتبه الصحافة يومياً، وما يتداوله الناس في مجالسهم من وقائع بشعة حدثت في محيطهم القريب. وإن ما يميز الجرائم الأخيرة شكلها الاستعراضي، وكأن هناك نزوعاً إلى إخراجها في قالب مسرحي.

ونقلت الصحف التونسية مؤخراً خبر إقدام أحد المواطنين على قتل جاره بأحد الشوارع الرئيسية بالعاصمة، كما تعرضت فتاة لاعتداء فظيع في شارع آخر. أما أكثر الاعتداءات استعراضاً ومسرحية فتمثلت في قيام بعض الشبان باعتراض سبيل الحافلات للاستيلاء على أموال وأمتعة الركاب. واهتز الرأي العام في تونس مؤخراً لسلسلة من الجرائم البشعة. ويقول دكتور مبروك إن هذه الجرائم تختلف عن السابق، فهي أكثر عنفاً ووحشية، ومعظمها جرائم عرضية وعابرة، وبلا أسباب.

ومن الأردن جاء التقرير التالي: أن عادة شطب الوجه بدأت تنتشر بين مراهقي المدن الأردنية في محاولة للانتقام ممن يغضبون عليه. وفي تكريس بشع لمفهوم الحقد يُوصم هؤلاء وجه خصمهم بعلامة لا تقارق صاحبها مدى الحياة، فيدفع أحياناً ثمن

إثم لم يرتكبه. وشطب الوجه طريقة يتبعها شبان منحرفون للانتقام من غريم، أو دفاعاً عن النفس أثناء عراك. وفي حال لم يتمكنوا من

إصابة الشخص نفسه، لا يتورعون عن شطب أحد أقاربه انتقاماً. فيقع كل من يصاب بالندبة ضحية، كما يصعب عليه التخلص من نظرات ريبة الآخرين من حوله.

وهكذا يضيع مستقبل معظم من يصاب بندبة في وجهه، فلا الجيش يقبل أن ينخرط في صفوفه، ولا أرباب العمل في القطاعين العام والخاص يوظفونه. وينتهي المطاف بهؤلاء بالعمل غالباً في أعمال لا تحتاج إلى شهادة أو خبرة، كما لا تتطلب تعاطياً مباشراً مع الآخرين. ويطارد شبح الندبة حياة حاملها حتى انتقائه لعروسه، إذ يرفض الأهل عادة ارتباط ابنتهم بشاب مصاب بالندبة، على رغم أنها قد تكون مغرمة به. لا سيما أن الناس تربط بين هذه الندبة والماضي الأسود للشاب، الذي يُعتبر من ذوي السوابق الإجرامية.

ويقول جراحو التجميل أن من الصعب معالجة ندب يصل إلى طبقات الجلد ما تحت البشرة. إضافة إلى عجز المصابين عن دفع تكاليف العملية. ومنهم من يلجأ إلى إطلاق لحيته لتغطية الندبة خصوصاً إن كانت في منطقة الذقن.

صديقي المستمع، ما هو تعليقك على مثل هذه الظواهر السلبية التي أخذت تجتاح بعض مجتمعاتنا العربية؟ إن ظاهرة الجريمة والقتل والإساءة إلى الآخرين ليست ظاهرة جديدة، بل هي موجودة منذ أن وجد الإنسان على الأرض. لكن الذي يقلق هو انتشارها وبشكل بشع ومرعب.

فقد قتل قايين أو قابيل أخاه هابيل، وكانا من أولاد أبينا الأولين آدم وحواء، وأول شقيقين على وجه الأرض. لقد أعمى الحقد عيني قايين، لأن الله قبل قربان أخيه هابيل ولم يقبل قربانه. فكلم الله قايين قائلاً: "ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض." وتابع الله قائلاً: "فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون في الأرض. فقال قايين للرب ذنبي أعظم من أن يُحتمل." (تكوين ٤: ١٠-١٣)

أجل إن أصوات دماء الأبرياء تصرخ دائما طالبة الانتقام من المجرمين. وإن الله لا بد له أن يعاقب كل من يسفك دم أخيه الإنسان. وها هو الله يعلن في بداية سفر التوراة قائلاً: "سافك دم الإنسان. بالإنسان يسفك دمه. لأن الله على صورته عمل الإنسان". (تكوين ٩: ٦) وسنّ الله في إحدى الوصايا العشر في الشريعة هذه الوصية الهامة: "لا تقتل". ثم أتى المخلص المسيح

ليخبرنا "لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون". (بشارة متى ٢٦: ٥٢ب) أي أن كل الذين يأخذون السيف لكي يقتلوا الآخرين لا بد أن يهلكون.

لكن ألا تكشف لك يا صديقي انتشار ظاهرة الجريمة عن وجود أسباب أعمق وراءها؟ صحيح أن القتل هو تعبير عن الكره والحقد ضد الآخرين، لكنه في نفس الوقت يشير إلى مدى سيطرة الخطية على قلب الإنسان. أي يشير إلى مدى عبودية الإنسان للخطية. وها هو المخلص المسيح يصرح أيضاً قائلاً: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف". (متى ١٥: ١٩) إن كل البشر يا صديقي هم عبيد للخطية، أي لكل ما هو شرير وفساد، ولهذا ليس غريباً أن تصدر من قلوبهم، مثل هذه الأفعال الشريرة.

لكن الخبر المفرح هو أن الله أوجد حلاً لهذه المشكلة، مشكلة عبودية الإنسان للخطية. فلقد أرسل الله كلمته الأزلي المخلص المسيح، لا ليكفر عن ذنوبنا فحسب، بل ليحررنا من عبودية الخطية، وليهبنا قلوباً جديدة تستطيع أن تسلك في طريق الصلاح والبر، وتبتعد عن أفعال الإثم والشر.

ولهذا كتب الرسول بطرس قائلاً: "مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد". (١بطرس ١: ٢٣) أي أن الله يغيّر حياة الإنسان الذي يؤمن بالمخلص المسيح، من الداخل، أي يولده ثانية من خلال كلمة الله الحية، وعن طريق الروح القدس. وها هو البشير يوحنا يكتب أيضاً قائلاً: "وأما كل الذين قبلوه -أي آمنوا بالمخلص المسيح- فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه. الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله". (بشارة يوحنا ١: ١٢ و١٣)

قد تقول صديقي: أنني لست مجرماً كهؤلاء المجرمين، لكنك أنت بلا شك خاطئ وبحاجة إلى أن تولد مرة ثانية من الله وتحصل بالتالي على القلب الجديد. فهل تأتي إلى الله بتوبة صادقة وإيمان أكيد بالمخلص المسيح، طالبا منه أن يحررك من عبودية الخطية وأن يهبك الحياة الجديدة؟